محمد حسن جاد (برق) (٢)

«يوم حل الحزب حسيت أن أمى وأبويا ماتوا فى يوم واحد. حسيت إننى أصبحت مجرد فرد ضعيف فى مواجهة مجتمع ظالم وغدار وانى فقدت الدرع والسند والحصن».
محمد حسن جاد

وعندما أصدرت كتابى تاريخ الصحافة اليسارية وتوجته بإهداء يقول «إلى رجل لا تعرفونه، إلى شجرة عجوز راسخة تبدو وكأنها أبدية الإصرار، أبدية العطاء إلى محمد حسن جاد. تجاوز السبعين من حياة وهبها جميعا- ولم يزل- من أجل المبدأ ووهب منها سبعة عشر عاما فى السجن دفاعا عن حرية الإنسان العربى.. وحقه فى التعبير».

أمسك عم برق بالكتاب وبكى قائلا: الآن اشعر أن عمرى لم يضع هباء وستأتى أجيال قادمة تعرف أن واحدا اسمه برق ضحى بحياته علشان هى تعيش أحسن. وقال: دايما إهداء الكتب يكون لواحد مهم أو مشهور اما إهداء كتاب لشخص بسيط مثلى فهذا شرف كبير.. كبير».

ثم نمضى سريعا مع سجين دائم لنقترب من عام ١٩٧٨ كان الزمن قد رسم خطوطه على الوجه الجرانيتى وكان يردد: لم أكن اتصور أن الزمن سيفعل بى ذلك «كنت اتابعه وهو يحفر بأظافره صخر الحياة القاسية لينتزع خبزا لنفسه ولاحفاده ولابناء احفاده وإذ آن له أن يستريح،رتب له رفاقه القدامى معاشا شهريا كافيا.

وفجأة دخل إلى مقر حزب التجمع.. وقف، تأمل، أخذ نفسا عميقا ثم أصدر لى أمراً حازما: أنا قررت اشتغل هنا، إذا قعدت فى البيت حأموت فوراً. سحب كرسيا وبدأ يمارس دوره كمسئول استعلامات دون حتى أن أنطق.

وذات يوم ناداه أحد قادة حزب التجمع ولم يكن يعرفه، اعطاه جنيها وقال له اشترى لى علبة سجاير. فذهب واشتراها وفيما يعطيه الباقى قال له : خللى الباقى علشانك» وهنا

سمعت زئيرا أتى بى من مكتبى، ووجدت عم برق ممسكا بخناقه وهو يقول: انا اشتريت لك السجاير علشان أنا مناضل ممكن أخدم أى زميل فى الحزب، لكن أنا مش نسحات.. فاهم؟ ويرد القيادى فاهم» لكن برق يعيد : فاهم؟ فاهم؟.

وعندما أتت السنوات العجاف. سنوات السادات وكامب ديفيد كان الهجوم الدورى على مقر الحزب المركزى استفزازا لا ينتهى، يأخذون كل شىء، آلات الطباعة والورق والأحبار وكان التركيز على أدوات الطباعة، وذات يوم أخذوا آلة طباعة جديدة فى اليوم التالى لشرائها.. وسمعنى عم برق، وأنا اقول مفيش فلوس نشترى غيرها»، واختفى. وبعد ساعتين عاد وهو يخفى داخل البالطو الضخم آلة طباعة بدائية (شاسيه خشب. وقطعة حرير مشدودة عليه ورول كاوتش وعلبة حبر) وكنا قد دعونا لمؤتمر صحفى عالمى نتحدث فيه عن المداهمات المتكررة لمقرنا. وأمام ورقة استنسل، وقف عم برق يعطى تعليماته لأحد رساميناً.. ارسم هنا وردة واكتب بخط عريض هنا «سنبقى دوما فى خدمة الوطن، وبعدين اكتبها هنا بالانجليزى وانصاع الرسام للأوامر. وشد برق الاستنسل على الشاسيه ويدخل الصحفيون وهو واقف فى مدخل المقر ليطبع لكل صحفى ورقة خاصة به. وتجمع الصحفيون حوله وهو يطبع قائلا بصوت عال خليهم ياخدوها أنا اقدر اعمل عشرين واحدة زيها كل يوم. واشتعلت فلاشات الكاميرات حوله واشتعل معها غيظ الأمن، وذات ليلة هاجموا المقر وصادروا الشاسيهات وأوراق مطبوعة عليها بيان شديد القسوة. وكانت بين المضبوطات ورقة دشت عليها بصمات أصابع «برق» فقد مسح الحبر عن يديه فيها. وقبض على برق فهم واثقون أن البصمات له. وبعدها بثلاثة أيام عاد فقد أتى تقرير الطب الشرعى مؤكدا أن البصمات ليست له. وسألته «كيف يا عم برق؟» وقال ضاحكا: المسألة سهلة. انبوبة اوهو تفرغها على اصابعك ثم تحك اصابعك فى اسفلت الزنزانة فتصنع بصمات جديدة، وواصل ضحكه قائلا حكومة صايعة.. وانا رجعت لأيام الصياعة».

وأخيراً نجحت أن أحقق له حلمه الأبدى .. أن يزور موسكو وكانت أولى أمنياته أن يزور قبر لينين، تخطى به المرافق الطابور الطويل جدا للزائرين فهو ضيف، وما إن وجد نفسه أمام جثمان لينين حتى شد قامته ووقف وقفة عسكرية، و.. تعظيم سلام، وظل واقفا رافضا أن يتزحزح.. يهزونه، يشدونه وهو ثابت فى وقفته العسكرية وأخيرا صاح فيهم: ما هو عندكم كل يوم لكن دى أول مرة وآخر مرة أشوفه. وعندما زحزحوه بالقوة عاد يحاول

أن يقف فى الطابور من جديد.. وعندما عاد من موسكو أتى معه بمنشار كهربائى صغير، وقال ده هدية الحزب علشان لو قلبوا علينا تانى نبقى نقدر نطبع زى ما احنا عايزين.

وأخيرا نجح الزمن.. سنوات العمر الذى استطال، السجن المضنى، والنضال الذى لا يهدأ والفقر الذى لا يرحم، نجحوا جميعا فى الانتصار على هذه الإرادة الجرانيتية. وفى أواخر أيام حياته زرته، وكان ممداً على سرير فقير وأمسك بيدى قائلا: خللى بالك من الحزب.

سمعا وطاعة يا عم برق